الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
ابن السبعـين يتحدّث
ويكشف عن تجربـته

ابن السبعين يتحدّث

ويكشف عن تجربته

.....

وقف سعيد أمام المرآة يستعرض صورته فيها أنّه ينقل ناظريه من رأسها إلى قدميها ثم يعيد النظر مرة بعد مرة.. وفي كل مرة يتوقف قليلاً أمام كل عضو من أعضاء تلك الصورة لكأنه يبحث عن شيء شائع عزيز عليه وكلما قامت عيناه بالجولة عبرها خرج منها يتساءل بينه وبين نفسه: هل أنّ الصورة التي تطالعني في المرآة هي صورتي أنا؟ أم هي صورة شخص آخر لم أعرفه من قبل.. ويستأنف المحاولة فتقوده عيناه إلى استعراض الصورة في المرآة مرة أخرى ويفرك عينيه وفي ظنه أنهما تخدعانه لكن محاولاته المتكررة تذهب عبثاً ودون جدوى...

****

لقد رأى بعينيه في مرآته رأساً أصلع لم تبق فيه غير خصيلات يكاد خلال دقيقة أو دقيقتين يعد شعراتها المسبلة فوق أذنيه.. أما وسط الرأس فهو صفحة بيضاء يفشى بياضها شيء من الحمرة الداكنة.. وراح يقول في نفسه بصوت هامس كما لو أنّه يخاف أن يسمعه: هذا لا يمكن أن يكون رأسي لا بد أنّه رأس إنسان آخر أنّ عهدي بهذا الرأي أنّه مغطى بشعر كثيف، والأعجب من ذلك أنّ الشعيرات الباقية فيها لم تعد سوداء اللون وهو الذي لم يكن يرى غير اللون الأسود.. فإذا انتقل من رأسه إلى جبينه فاجأته غضون تخدو بها جلده فوضع يده على هذا الجبين في محاولة لمحو الغضون ثم رفعها وفي ظنه أنّ الغضون عرض زائل فإذا به يفاجأ ببقائها كما هي، قد فقدت ملامستها التي طالما أمتعت ناظريه ووجد فيها آية على شبابه الذي كان يظنه خالداً أبد الدهر.. فإذا نظر في عيني الصورة ظهرتا له صغيرتين قد غطاهما على صغرهما جفنان غليظان.. فلما حملق بعينيه فيما وراءها بدت له حمرة في بياضهما كما تبين أنهما سواداً باهتاً فقد ما يعرفه فيه من اللمعان الذي طالما وجد مثله في بعض قطع الرخام الأسود اللامع.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

ثم ينحدر بناظريه فيروعه أنف غريب قد فارقه الشباب وكذلك وجنتاه فلم يكد يثبت نظره عليهما حتى خيل إليه أنهما أشبه ما تكونا بقماش من النوع الرديء قد تكرمش ودخل بعضه في بعض تعجز المكواة المحماة عن إعادة الملاسة إليه.. أما عنقه فقد تهدل الجلد عليها فبدا في مقدمها شبيهاً بعنق تيس هرم.

ثم انحدر قليلاً فإذا به يقع على كتفين منحنيتين وعهده بهما عريضتان مستقيمتان تبدو عليهما إمارات قوة تتحدّى بهما مرور الأيام والسنين.. فإذا نظر إلى صدر الصورة في مرآته خيل إليه أنّ قبضة حديدية جبارة قد بعجته فتطامت منطوياً على نفسه تحت وطأة الضربة الموجعة..

****

ويهرب بعينيه من الصدر فإذا به يفاجأ ببطن منتفخة قد حفلت تحت جلدها بطبقة من الشحم فجعلت منها صورة كاريكاتورية رسمتها يد مجهولة لتثير سخرية الناظر إليها. وما زال يهبط بناظريه إلى ما دون البطن فإذا بلغ بهما فخذيه عرته رجفة لم يستطع التغلب عليها حين رآهما مورمتين بعضلات ضامرة كان يظن يوماً من الأيام أنّ النحافة والهزال لن يعرفا سبيلاً إليها.

ويعود إلى التساؤل مرة أخرى أين الممكن أن تكون الصورة في المرآة هي صورة سعيد الذي كان يزهو بشبابه ويفاخر بقوته ويتحدى الأقران بحيويته؟ ويحدث نفسه من جديد فيقول: بالأمس القريب كنت أمشي في الطريق مشية عرفت بها وأتزين بالثياب المترفة الرافهة وأتطيب بأنواع من الطيوب لا تكاد تخطئها أنوف الناس من حولي. وبينما كان يتحسس جيبه وقعت يده على بطاقة أخرجها منها ونظر فيها فإذا بها هوية سجل فيها تاريخ مولده ويقرأ ما كتب فيها فإذا بهذا المولد قد مضى عليه سبعون عاماً.. والواقع أنه لم يكد يصدق عينيه.. هل صحيح أنه قضى في هذه الدنيا سبعين عاماً بلياليها ونهاراتها؟ لقد ذابت هذه الأعوام السبعون أو تضاءلت فإذا بها سبعون يوماً بل سبعون ساعة لا بل سبعون دقيقة أو ثانية إنه يشعر الآن وكأنه لم يعش تلك الأعوام الطويلة.. فقد مضت كما يمضي البرق الخاطف.. أو مضت كما يمضي حلم من الأحلام، كل ما تركه في نفسه أنّه ذكرى باهتة قد فارقتها حرارة الحياة وحيوية الأمل وشعلة التفاؤل المضيئة.. ثم لم يبق من هذه الذكرى غير رماد بارد لا حياة فيه.

ويجلس سعيد فوق مقعد وثير وقد شعر أنّه في حاجة إلى الراحة، فقد أتعبه الوقوف أمام المرآة وهو الذي كان يقف ويمشي أو يقفز ويركض الساعات الطوال فلا يلم به الألم ولا يضيق به جسده فهو أبداً متجدد في قوته لكأن مدداً سحرياً كان يزوده بما يحتاج إليه من العزيمة والمضاء.

دنيا قصيرة.. سراب في صحراء.. رماد بارد.. ثم ريح تحمل إليه الصقيع فإذا به مرور يحس بالرجفة تزلزل جسده وتعصف بكل جارحة من جوارحه.. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يتنافس الناس في اقتناء متاع هذه

الدنيا؟ ولماذا يتزاحمون بالمناكب للتزود بالمال والرياش ويكافحون ليلهم ونهارهم للحصول على مزيد منهما.. أفيجمعون هذا كله لكي يتركوه وراءهم نهبة للفساد أو الضياع؟ كل شيء من أشياء هذه الدنيا يفارقهم.. وكل متعة تفقد لذتها وكل صورة يضيع رواءها حتى النساء الجميلات يفقدن في نظر الشيخ العجوز ذلك الحافز الذي يدفعه للسعي وراءهن. أما المال الكثير الذي جمعه بشق النفس وعرق الجبين والمخاطرة حتى بالحياة لا يعود له بريقه، إنّه لا يزيد على كونه رقماً من الأرقام مودعاً في مصرف من المصارف.

تباً لهذه الدنيا التي طالما غررت به، وأفسدت عليه طمأنينة نفسه ودفعته إلى قطع الرحم والانقلاب على الأصدقاء والسعي الهستيري إلى اقتناء ما لا يعود عليه بشيء ينفعه.. فهو لا يأخذ منها غير ما يملأ معدته، ويكسو عريه، ويظله في مسكنه يحميه من تقلبات الطبيعة التي تكتنفه بحرها وبردها وريحها.. وهي في كل يوم من أيام حياته تأكل جزءاً منه وتستنفد بعض طاقته وتمده بما يشغل له رأسه شيباً، ويتخدد به جلده، ويفقد به طعم اللذات على تنوعها، ثم لا يستبقي في أعماقه غير حزن صامت وأسف ساكن، ويأس من استعادة ما فقده من الفتوة والشباب.

وإذا به بعد السنوات العديدة التي تضاءلت في ذاكرته لا يستبقي لنفسه غير الوزر يحمله بعد أن يترك لمن بعده كل ما جمعه من مال ومتاع.. فله الوزر ووخز الضمير والذكريات المؤلمة والندم على ما فات منه ولغيره ما جمعه بالثمن الكبير الذي يتمثل في حساب عسير يؤديه بين يدي خالقه يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا سلطان ولا نسب إلا من أتى الله بقلب سليم.

****

ويحاول سعيد بعد ذلك وقد ثبت له أنّ الصورة في المرآة هي صورته من دون الناس، أن يقول لكل من يحب أن يسمعه حصيلة تجربته، ويشير إلى تضاؤل السنوات التي يخلفها وراءه وتحولها إلى حلم من الأحلام.. ثم يستأنف الإشارة ويكرر القول في كل مناسبة تعرض له، فإذا من حوله يستقبلون بعقولهم ما يقص عليهم من تجربة حياته، ولكنهم لا يلبثون وقد ابتعدوا عنه أن يخضعوا للغرائز التي فطروا عليها تطالبهم وتلح عليهم في الطلب أن ينافسوا كل الناس ويزاحموهم وينتزعوا منهم ما يستطيعون انتزاعه من متاع الدنيا وأموالها وأرزاقها يخزنونه في بيوتهم أو يودعونه في مصارف المدينة وكأنّ حجاباً كثيفاً غليظاً قد حجز بينهم وبين العقول التي استقبلوا بها قصة سعيد واستوعبوا بها تجربته.. ولئن أسعفتهم ذاكرتهم على استعادة ما استوعبوه واستقبلوه بعقولهم لا يلبثون حتى يهربوا من تلك الذاكرة ويتحرّروا من سلطانها.

حين تعرض لهم الدنيا بزينتها وثيابها البراقة ووعودها الغرارة وشهواتها المثيرة فيندفعون اندفاع الموج الهادر أو الريح العاصفة سعياً إلى التشبث بعرض تلك الدنيا وركضاً وراء لذاتها التي زينتها لهم.

****

كل هذا وسعيد يرى ويسمع فلا يزيد على أن يهز رأسه في استسلام الشيخوخة العاجزة والعقل الحكيم ويدرك أنّ الواعظ الحقيقي لا يأتي من الخارج أبداً.. فلا الخطبة البليغة ولا الموعظة البينة ولا النصيحة الصادقة هي التي تلعب الدور الأكبر في صوغ أعمال الناس وتشكيل حياتهم حين لا يزال الشباب ملء جوانحهم وأحلام المستقبل ملء خاطراتهم.. إنّه يدرك أنّ الواعظ الحقيقي عند أكثر الناس هو الذي يأتي من الداخل.. والداخل لا يكتشف ضوء الهداية ما لم يتعرض لضغوط الغرائز وما تزينه له نفسه من لذات الدنيا ومتاعها.. ذلك أنّ الشباب لا يؤمن بقصر العمر ولا يجد في الشيخوخة غير ظاهرة تعيش على هامش الحياة والأحياء.

ويقول سعيد بينه وبين نفسه بعد أن يرى تصور القلوب الشابة عن رؤية الدنيا على حقيقتها، وعجز العقول عن تطويع إرادة الشباب الجامح: يكفيني أنني قلت كلمتي ثم لا أبالي أن تكون نداء في واد أو نفحة في رماد أو محاولة لزلزلة قلوب مغلقة.. وما يدريني لعل ما أرى وأسمع وما بلوت وعرفت هو الناموس الذي لا يقبل تغييراً ولا تبديلاً أنّ تجربة الشيخوخة لا يستفيد منها غير الشيوخ.. وكما تستوعب الشيخوخة جوهر التجربة بعد أن تدفع الثمن من جموح الشباب وأخطائه، فإنّ من حق الآخرين أو من طبيعة الناموس الإلهي أن يتكرر جموح الجامحين وأخطاء المخطئين لكي يدفع كل واحد من أصحابها ثمن التجربة التي يفوز بها وهو في السبعين أو الثمانين من العمر.

ولا عجب بعد ذلك أن يكون الشاب العابد المتّعظ عمله نادرة في دنيا الناس، فيكون واحداً ممن يظلهم الله تحت ظله "يوم لا ظلّ إلا ظلّه"..